

## العلم بوصفه خطابا سياسيا

د. عزيزة بدر محمد (\*)

### الملخص

العلم خطاب سياسي، حيث تنتقل المفاهيم المعرفية الرئيسة الماثلة داخل الحقول المعرفية لتغير الأجندة السياسية، العلم سلسلة من الخطابات السياسية، وذاك أن لغة العلم مختزقة أيديولوجيا، تختزقها أيديولوجيا الهيمنة الماثلة في ممارسات سيكولوجيا الشخصية، وتنمية الشخصية الفردية في المجتمعات الأوروبية وشمال أمريكا.

وبالوسع ها هنا القول أن العلوم السياسية وعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع في الدراسات الأكاديمية الحديثة علوم أيديولوجية.

ولنا أن نلفت هنا إلى أن اتفاق الآراء على أن المعرفة «الحقيقية» معرفة غير سياسية في جوهرها، أو حين القول بأن المعرفة السياسية السافرة معرفة «غير حقيقية» يفضي إلى تعميم الشروط السياسية التي أنتجت في ظلها تلك المعرفة.

وتم مفاهيم كثر أسهمت في دعم أبستمولوجيات المركزية الأوروبية وأيديولوجيات الإمبريالية، ومن بين تلك المفاهيم مفهوم «همجي / متحضر»، حيث يعرف «الهمجي» غير المتحضر بوصفه كيان أو إنسان في أدنى مراحل الثقافة، وقد ظهر مفهوم الثقافات المتحضرة (أو الأشخاص) في بدايات عام ١٦٠١، ويعني المدنية، أي الانتقال من الحالة البربرية إلى تعلم فنون الحياة وإلى التنوير والارتقاء.

وتم مفاهيم أخر كمفهوم بدائي، وهمجي، والعالم الثالث، ومتخلف، وغير- غربي، والتدوين الأنثروبولوجي وغيرها كثر، تلك المفاهيم تتخذ الغرب معياراً، وتشير إلى باقي البشر بوصفهم أدنى، ومنحرفين، وهامشيين.

(\*) أستاذ مساعد الفلسفة اليونانية بقسم الفلسفة - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - مصر.

كلمات مفتاحية: الحداثة - الثنائية - التنوير - الكونية - كارتوجرافيا.

## Abstract

Science is a political discourse, where the main cognitive concepts present within the fields of knowledge are transmitted to change the political agenda. Science is a series of political discourses, and that the language of science penetrates ideologically, penetrates the hegemonic ideology present in the practices of personality

psychology, and the development of individual personality in European societies and North America and more here Saying that political science, economics and sociology in modern academic studies are ideological sciences, and we should point out here that the consensus of opinions that «real» knowledge is essentially non-political, or when saying that blatant political knowledge is «unreal» knowledge leads to the obfuscation of the conditions. The politics under which that knowledge was produced.

And then many concepts contributed to supporting the epistemologies of European centralism and the ideologies of imperialism, and among those concepts is the concept of «savage/ civilized», where the uncivilized «savage» is defined as an entity or human being in the lowest stages of culture, and the concept of civilized cultures (or persons) appeared in The beginnings of the year 1601, meaning civilization, that is, the transition from the barbarian state to learning the arts of life and to enlightenment and advancement. Then other concepts such as primitive, barbaric, third world, backward, non-Western, anthropological notation and many others, these concepts take the West as a standard, and refer to the rest of human beings as inferior, deviant, and marginal.

**Keywords:** Modernity - Dualism - Enlightenment - Universalism - Cartography.

## مقدمة

□ لأننا ذوات مقهورة.

□ ولأنها أبستمولوجيا استبدادية وحشية.

□ ولأن العلم خطاب سياسي.....

تأتي تلك الورقة تعبيراً عن معاناة ذاتية حقيقية، وذلك أي لا أملك ترف الانفصال عن الواقع أو التعمي عنه، فماذا عساي أن أفعل؟

كنت مدفوعة بهذا المهم، وسألت نفسي.. أنخرط في أوراق بحثية أكاديمية خالصة؟ ولكن ماذا عن الواقع المأساوي المعيش، وما قيمة بحوث أكاديمية تتحرى المعايير البحثية الأكاديمية، وتتعامل عن الواقع المحزن، لتسقط المعايير والبحوث الأكاديمية إذا تعامت عن الواقع وتعالته عليه.

وما جدوى الفلسفة إذا لم تسهم في الواقع، في التغيير الاجتماعي..

كنت مدفوعة بهذا المهم.

ذاك الانهمام ليته يغدو التزاماً أخلاقياً إنسانياً لدى الذوات العارفة، وذلك تجاوزاً لفصل الإنساني عن الأكاديمي، فذاك الفصل يدعم سلطة المعرفة.

رفضاً لبحث أكاديمي يدعم سلطة المعرفة، وطعنًا في مفاهيم معرفية مجحفة تلف وتوجه الحاضر والواقع المعيش، وتمارس فعلها في الحياة اليومية، بل تسهم في تشكيل أدق تفاصيل الحياة الإنسانية، كانت تلك الورقة.

تعاطفت مع تلك الورقة حد البكاء، فثمة حاجة لحقول معرفية ومقاربات تشتبك بالواقع اشتباكا، تسهم في تقويض المفاهيم والثنائيات الكامنة في صلب المشروع الإمبريالي، وتكشف زيف دعاوي المشروع التنويري الغربي.. وكيف لا والعلم خطاب سياسي، حيث تنتقل المفاهيم المعرفية الرئيسة الماثلة داخل الحقول المعرفية لتغير الأجندة السياسية، العلم سلسلة من الخطابات السياسية، وذلك أن لغة العلم مخترقة أيديولوجيا، تخترقها أيديولوجيا الهيمنة الماثلة في ممارسات سيكولوجيا الشخصية، وتنمية الشخصية الفردية في المجتمعات الأوروبية وشمال أمريكا<sup>(1)</sup>.

(1) Helen Longino ,science as social knowledge: values and objectivity in scientific inquiry, Princeton university press, 1990, p. 4.

وبالوسع ها هنا القول أن العلوم السياسية وعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع في الدراسات الأكاديمية الحديثة علوم أيديولوجية<sup>(١)</sup>.

ولنا أن نلفت هنا إلى أن اتفاق الآراء على أن المعرفة «الحقيقية» معرفة غير سياسية في جوهرها، أو حين القول بأن المعرفة السياسية السافرة معرفة «غير حقيقية» يفضي إلى تعميم الشروط السياسية التي أنتجت في ظلها تلك المعرفة<sup>(٢)</sup>.

وتم مفاهيم أكثر أسهمت في دعم أبستمولوجيات المركزية الأوروبية وأيديولوجيات الإمبريالية، ومن بين تلك المفاهيم مفهوم «همجي / متحضر»، حيث يعرف «الهمجي» غير المتحضر بوصفه كيان أو إنسان في أدنى مراحل الثقافة، وقد ظهر مفهوم الثقافات المتحضرة (أو الأشخاص) في بدايات عام ١٦٠١، ويعني المدنية، أي الانتقال من الحالة البربرية إلى تعلم فنون الحياة وإلى التنوير والارتقاء.

وتم مفاهيم آخر كمفهوم بدائي، وهمجي، والعالم الثالث، ومتخلف، وغير - غربي، والتدوين الأنثروبولوجي وغيرها كثير، تلك المفاهيم تتخذ الغرب معياراً، وتشير إلى باقي البشر بوصفهم أدنى، ومنحرفين، وهامشين<sup>(٣)</sup>.

ويسعنا هنا أن نلفت إلى حقل الاستشراق، فهو ليس نصوصاً كتبت عن الشرق فحسب، أنه وعي جغرافي سياسي مبثوث في النصوص العلمية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية، هو سلسلة من «المصالح» التي تتحقق متكأة على نتائج البحوث العلمية، وإعادة البناء اللغوي القديم والتحليل النفسي ووصف ظواهر الطبيعة.. ليس لتفهم عالم جديد، بل للسيطرة عليه وضمه والتلاعب به، وهو قبل كل شيء «خطاب» يأتي إلى الوجود ويحيا في إطار شتى أنواع السلطة، وعبر السلطة السياسية (مثل المؤسسات الإمبريالية) والسلطة الفكرية (العلوم السائدة) والسلطة الثقافية (المناهج «الصحيحة» المعتمدة للذوق والقيم) والسلطة الأخلاقية (الأفكار الخاصة بما يفعله الغرب ولايستطيع غيرهم أن يفعلوه أو يفهموه)<sup>(٤)</sup>.

(١) إدوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: محمد عناني.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٥.

(3) Bill Ashcroft, Gareth Griffiths and Helen Tiffin, post colonial studies the Key concept, Routledge 2000, p. 209.

(٤) إدوارد سعيد - الاستشراق، ص ٥٨.

وقد اتخذ الغرب من أفريقيا دليلاً على تفوقه الذاتي الخاص، وذلك بوصفه ثقافة متحضرة، تقف على النقيض من (ظلام) أفريقيا السوداء البدائية.

ومع بدايات العالم الحديث راح الغرب يؤسس لذاته ووجوده استناداً إلى ثنائية همجي/متحضر على نحو أكثر تعقيداً، حيث يأتي فهم الذات الغربية للهمجي على النقيض من فهمها لذاتها، وهذا يستلزم أن تغدو الذات الغربية هي الفاعلة في العالم السياسي الواقعي، وإذا كان فرويد يضع الأنا بوصفها تتوسط الأنا العليا المتحضرة *civilizing super-ego* والليبدو *libido* البدائية؛ فقد تم توظيف خارطة فرويد تلك في الواقع السياسي كميثافور أو مجاز لتلك العلاقة الهيكلية فيها بين أوروبا والآخرين<sup>(1)</sup>.

الذات الغربية المعاصرة ترى أنها توازن شفيف فيها بين المتحضر والبدائي، وها هنا يبدو الفهم الغربي للذات الغربية، وكذا ذوات الآخرين فهما زائفاً عبر تلك المفاهيم الجدلية.

وعلى الرغم من ذلك تم توظيف ذلك السرد الثقافي في إعادة تشكيل علاقات الغرب - الآخر.

ولنا أن نلفت هنا إلى أن ثمة شبكة من المفاهيم أسهمت في التأسيس لإبستمولوجيات المركزية الغربية ولأيدولوجيات الإمبريالية، وقد تواشجت تلك المفاهيم داخل الخطاب السياسي الإمبريالي، ومن بين تلك المفاهيم مفهوم وخطاب الحداثة، ومفهوم الثنائيات، ومفهوم التنوير، ومفهوم الكونية، ومفهوم وكارتوجرافيا المركز/الهامش، ومفهوم تاريخ العلم وتأريخ العلم، ونسق جنس/جنوسة.

وسوف أقارب تلك المفاهيم الواحد تلو الآخر:

□ الحداثة خطاب بلاغي وسردية استعمارية.

□ الثنائية «المنطق الداخلي للهيمنة».

□ التنوير «فصل في تاريخ الاستبداد».

□ الكونية «سردية شوفونية».

□ تاريخ العلم وتأريخ العلم.

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffiths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p. 26.

□ نسق جنس / جنوسة.

□ خاتمة.

□ الحداثة خطاب بلاغي وسردية استعمارية.

الخطاب discourse أحد أكثر المفردات شيوعاً في النظرية المعاصرة، حيث يشير الخطاب - في معناه التقليدي - إلى حديث رسمي formal speech، وقد غدا مفهوم الخطاب معنى تقني technical sense، وذلك حين وظف اللغويون مفهوم الخطاب في الإشارة إلى وحدة متماسكة من الحديث، لا جملة واحدة فحسب.

وكان مفهوم الخطاب قد اشتق من ميشيل فوكوه، الخطاب - فيما يرى فوكوه - متواشج بالمعرفة الاجتماعية، هو نسق من القضايا يسعنا عبره التعرف على العالم، الخطاب يُحضر العالم، يمنح الوجود للعالم، فالعالم ليس هناك (there) كيما نتحدث عنه، وكذا ليس بالوسع الإشارة إلى العالم بكلمة هنا أو هناك، وعبر الخطاب نفسه يأق العالم إلى الوجود<sup>(١)</sup>.

ولنا أن نلفت هنا إلى أن الخطاب يدنو من أن يكون نقطة التقاء المتحدثين والمستمعين، القراء والكتاب، حيث يحقق لهم الفهم الذاتي، ويحدد علاقة كل منهم بالآخر، وكذا يحدد مكانتهم في العالم (بناء الفردية).

الخطاب هو العلامات والممارسات المعقدة التي تُسهم في تنظيم الوجود الاجتماعي، وكذا إعادة الإنتاج الاجتماعي social reproduction.

وعلى هذا، بالوسع النظر إلى الحداثة بوصفها خطاباً لا حقبة فحسب، حيث أسهم مفهوم الحداثة في خلق الخطاب الاستعماري، إذ الحداثة مهمة وحاسمة لممارسة القهر والإخضاع والحكم الإمبريالي، ولتهذيب الروح وإبداع الحقيقة.

وكذا يُفترض أن ثمة ديناميكية جوانية ماثلة في الحداثة الأوروبية، تلك الدينامية تمنحها قوة فائقة تمارس عبرها تأثيراً مهيباً على الشعوب غير الأوروبية، إذ في التربة الغربية وحدها ثم ظواهر ثقافية أنتجت علائم التقدم التطوري والصحة الكونية<sup>(٢)</sup>.

(1) Ibid, p.27.

(٢) ليندا لانج، القرابين المحروقة للعقلانية: قراءة نسوية لبناء الشعوب الأصلية في نظرية انريك دوسل عن=

وقد أسهم هذا الخطاب في خلق هوية إنسانية فيما بين أوروبا ومستعمراتها، ولنا أن ننوه هنا إلى أن بدايات الحداثة كانت مصاحبة لبدايات المركزية الغربية والهيمنة الأوروبية على العالم عبر التوسع الإمبريالي. فقد انبثقت الحداثة في الوقت الذي باتت الشعوب الأوروبية تدرك علاقات الهيمنة تجاه العالم غير الأوروبي، ومن ثم راحت تبسط الحكم الاستعماري عبر الكشوف الجغرافية والاستعمار.

أسست أوروبا لذاتها بوصفها «حديثة»، وأسست للذوات غير الأوروبية بوصفها ذواتا تقليدية، وساكنة، وبدائية، وغدت خدعة الأنماط الأوروبية المتعاقبة بالتغير التاريخي (النموذج التاريخي المكون من العصور «المظلمة» وعصر «التنوير» الذي فرض على العالم رغم سياقاته المختلفة) أداة أسهمت في أن تنكر تلك المجتمعات أية دينامية داخلية تقودها للتطور.

وثمة أسطورة غير عقلانية متواشجة بالحداثة، باتت تبريرا للعنف الاستعماري ليصل إلى «مغالطة تنموية»، وتستند تلك المغالطة على رؤية أوروبا بوصفها نقطة النهاية لعملية تنموية كونية، وعلى كل الشعوب الأخرى أن تسير نحوها وسوف تفعل<sup>(١)</sup>.

ها هنا يسعنا أن نفهم الحداثة بوصفها خطابا بدلا من حقبة، فقد غدت نقطة فاصلة، تفصل المؤسسات الاجتماعية الحديثة عن تلك الأنظمة الاجتماعية التقليدية، وانبثقت أنماط اجتماعية جديدة لم تكن معروفة في المجتمعات قبل الحديثة: كالأمة - الدولة، وتعديل نمط الإنتاج وأجور العمل، والتعليم الرسمي، وعلمنة القيم والمعايير، وغلبة أنماط الحياة الأوروبية.

تلك الاختلافات هي المائزة للنمط الحديث عن النمط الماضي قبل الحديث، وكذا أسهمت في تمييز أوروبا المستعمرة عن الثقافات المستعمرة، وعلى هذا، باتت الحداثة مغالطة يشوبها التباس مُطبق.

وقد غدت العقلانية هي قلب الحداثة النابض، العقلانية هي القلب النابض للفكر

= الحداثة، نقد مركزية المركز، الفلسفة من أجل عالم متعدد الثقافات بعد استعماري ونسوي، تحرير أوما ناربان وساندرا هاردنج، ترجمة: بيني طريف الخولي، الجزء الثاني، ص ١٠٦.

(١) المرجع السابق، ص ١٠٧.

الحداثي، حيث تم توصيفها نمطا أوروبيا في التفكير، حتى أحكمت أوروبا قبضتها على العالم عبر القرن التاسع عشر.

ها هنا باتت الحداثة مرادفة للسلوك المتحضر civilized behaviour، وكذا تبرير المهمة التحضير civilizing mission، تلك التي تعني تهيئة بقية العالم للحضارة.

يأتي ذاك التبرير الكامن في صلب المشروع الحداثي تعبيراً عن براديم الحداثة، حيث يقدم براديم الحداثة تبريران لكل استراتيجية يود تطبيقها وهما:

□ حقوق الإنسان والمبادئ العامة.

□ تحقيق حياة مبهجة آمنة للإنسان والبشر في كل مكان.

ويدنو هذان التبريران من رؤية ميشيل فوكوه، تلك الرؤية المتعاقبة بناموس أخلاقي code ethics.

ويسعنا أن نلفت هنا إلى أن فرضيات الحداثة الأخلاقية (الخطائية) تلك قد أسهمت في دعم السرديات الاستعمارية، حيث ترسم تلك السرديات صورة الذوات المستعمرة بوصفها ضحية تخلف وهمجية ثقافتها الخاصة<sup>(١)</sup>.

وقد انطمرت الحداثة على تضمينات ثانوية وأسطورية تبرر الممارسة غير العقلانية للعنف، وذلك على الرغم من مثال المجتمع الخطابي فيها الذي ينبذ القهر<sup>(٢)</sup>.

ويهمنا هنا أن ننوه إلى أن مفهوم الثنائية كان كامنا في صلب المشروع الحداثي، ذلك المفهوم الذي يشيد هوية إقصائية فيما بين طرفي الثنائية، وعلى هذا تم ترسيم ثنائية غربي/ بدائي.

### الثنائية «المنطق الداخلي للهيمنة»

يتواشج منطق القهر بمفهوم الثنائية أو التعارض الثنائي، حيث يشيد ذاك المفهوم هوية إقصائية - فيما بين طرفي الثنائية - وحدود تتعارض<sup>(٣)</sup>.

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffiths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p.35.

(٢) ليندا لانج، القرابين المحروقة للعقلانية، ص ١١٢.

(3) Val plumwood, the environment, in A companion to feminist Philosophy, edited by: Alison M. jaguar and iris marion young, P.213.

تؤسس البنى الاستبدادية استبدادها عبر التعارضات الثنائية، الأبيض / غير الأبيض، العقل / الجسد، الروح / المادة، الثقافة / الطبيعة، ما يسهم في ترسيخ القهر عبر افتراض صدق تلك الثنائيات وغرسها في البنى المعرفية والدينية والثقافية والاجتماعية بوصفها مقدسة.

وقد واجه سبينوزا - في القرن السابع عشر - التعارض الثنائي الذي أرساه ديكرت، فيما يعرف بالثنائية الديكارتية، تلك التي تؤسس لنوعين من الجواهر يتمايزان، هما الجسد أو المادة والعقل، حيث يؤشر سبينوزا على أن العقل والمادة وجهان لجوهر واحد أساس، ليس يسعنا التعرف إلى طبيعته، وذلك لأنه مطلق مؤكدا على أن المادة والعقل يتواشجان<sup>(١)</sup>.

القسمة الثنائية نمط هيراركي في التفكير، يؤسس لتفوق حدود بعينها، حيث يتفوق الطرف الأول على الثاني، ولنا أن نلمس ذلك عبر ثنائيات من قبيل العقل / الشعور، والعقل / الجسد، والثقافة / الطبيعة، والرجل / الطبيعة، وغيرها كثير<sup>(٢)</sup>.

وقد أسهم المنطق الثنائي - منطق الاستبداد - في ترسيخ نزعة لدى الفكر الغربي، نزعة لرؤية العالم عبر ودخل حدود التعارض الثنائي، ذلك الذي يؤسس لعلاقات الهيمنة.

حيث يفصح التمييز البسيط بين كل من المركز / الهامش، والمستعمر / المستعمر، والحواضر / الإمبراطورية، والمتحضر / البدائي، عن هيراركية عنيفة أنبت عليها الهيمنة وكذا الإمبريالية ومكثنا.

وهنا نلمس أن ثم تعالق فيما بين التعارض الثنائي أو طرفي الثنائية، ففي الخطاب الإمبريالي تتغير الثنائية التابعة، ويعاد صوغها داخل النصوص عبر شكول كثير على هذا النحو:

□ المستعمر: المستعمر.

□ أبيض: أسود.

□ متحضر بدائي.

□ متقدم متأخر.

□ خير شرير.

(1) Don Ihde, Philosophy of Technology: An introduction, paragon house, 1998, p. 187.

(2) Ibid, p. 189.

□ جميل قبيح.

□ إنساني وحشي.

تبدو تلك الأبنية الثنائية هنا بوصفها تصنيفا مححفا بين حدين، وبالوسع قراءتها على هذا النحو:

المستعمر الأبيض الإنسان الجميل، تُعارض المستعمر الأسود الوحشي القبيح.

وها هنا تغدو الثنائية مهمة في تشييد المعاني الأيديولوجية على نحو عام، وأيديولوجيا الهيمنة على نحو خاص<sup>(١)</sup>.

تسهم البنية الثنائية في صنع موائمات فيما بين الثنائية والإمبريالية، وذلك بدافع تحضير المستعمر.

وتم ثنائيات أسهمت في التأسيس للمفاهيم الحديثة المتعاقبة بالعقلانية والعلم، وتلك هي ثنائيات العقل/المادة، والطبيعة/الثقافة، والحرافة/المعرفة<sup>(٢)</sup>.

وتلك القسمة الأنطولوجية بين العقل وبين العالم والجسد والتي تأسست عبر العقلانية الديكارتية هي بناء ثقافي تاريخي وليست حقيقة كونية، وكذا التمايز الإبيستيمي/التقني<sup>(٣)</sup>.

ولنا أن نوه هنا إلى أنه فيما يخص مهمة التحضير «civilizing mission»، يغدو التعالق بين طرفي الثنائية، أكثر تعقيدا عما تفترضه تلك البنية الثنائية، حيث يسلك الطرف الأول على نحو يجب أولئك الخاضعين للتعارضات الثنائية، الطرف الأول يتغيا دوما حجب الطرف الثاني أو الطرف اللاحق به.

لكن القسمة الثنائية ليست مدفوعة دوما بالرغبة في الهيمنة، حيث نلمس محاولة روسو (في مقاله في أصل اللغات) توكيد حيوية ودفء اللغات الشرقية كالعربية والفارسية، بيد أنه حين الحديث عن المنطق والدقة في الكتابة الغربية، إذا به - روسو - يشرع في استبعاد تلك

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffiths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p.23.

(٢) دورسيلا ك. باركر، الثنائيات والخطاب والتنمية، نقد مركزية المركز، الفلسفة من أجل عالم متعدد الثقافات بعد استعماري ونسوي، تحرير أوما ناريمان وساندرا هاردنج، ترجمة: يمينا طريف الحولي، الجزء الثاني، ص ٣٨، دورسيلا ك. باركر.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٧.

اللغات بوصفها بدائية، وذلك من حيث العقل والثقافة، ما أسهم في ترسيخ الثنائية فيما بين العلوم الغربية وبين البدائية واللاعقلانية الشرقية.

ويسعدنا أن نشير هنا إلى أن الانهماج بالثنائية كان قد بدأ للمرة الأولى مع البنيوي الفرنسي فرديناند دي سوسير، حيث راح يلفت إلى أن بعض العلامات signs تكتسب معنى، لا لكونها تؤشر على موضوعات حقيقية، ولكن لكونها تتعارض مع علامات أخرى.

التعارض الثنائي صوغ مفرط في الاختلاف... أبيض / أسود، رجل / امرأة، ميلاد / موت، فكل تعارض من تلك التعارضات يمثل نسقا ثنائيا، وتلك التعارضات ماثلة في البنية الثقافية.

وتكمن المشكلة في أن تلك الأنساق الثنائية تقمع التداخل والتمازج فيما بين الفئات المتعارضة، إذ يغدو التداخل هنا جد عسير، وذلك وفقاً للمنطق الثنائي<sup>(١)</sup>.

و بالوسع التحرك خارج تلك التعارضات الثنائية، وذلك عبر فهم أوجه الالتقاء فيما بين الحداثة وشكول الإدراك التقليدية غير الحداثية (وهذا فيما يخص ثنائية الحداثة / التقليد)، ثم من يقدم ثنائية العقل / الجسد - تلك المائزة للعقلانية الديكارتية - بوصفها بنية تم تحديدها ثقافيا، فهي جزء لا يتجزأ من رؤية العالم العلمية التي ترى الجسد والعالم الطبيعي آلات ميكانيكية تخلو من الإدراك، وليست تماثل الكائنات العضوية الحية<sup>(٢)</sup>.

وقد راحت النظريات بعد البنيوية والنسوية المعاصرة تلفت إلى أن الثنائيات تؤسس لهيكلية عنيفة، حيث يهيمن أحد حدود التعارض دوماً، (الرجل على المرأة)، (الأبيض على الأسود).

التعارض الثنائي نفسه يؤسس للهيمنة، وذلك أنه إذا كان ثم تفاعل لا يتواءم مع التعارض الثنائي يتم قمعه.

و يفصح التعارض مستعمر / مستعمر عن ازدواجية ماثلة في الشيزوفرنيا الثقافية، وكذا يفصح عن أنماط كُثر من الانشغال بالهوية، حيث يبث طاقة تدعم أحد طرفي الثنائية، كالقومية على سبيل المثال.

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffiths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p.24.

(٢) دورسيلاك. باركر، الثنائيات والخطاب والتنمية، ص ٤٠، ٤١.

وقد أسهمت النظرية - بعد الاستعمارية في مناهضة التعارضات الثنائية الإمبريالية تلك، حيث راحت تشق ازدواجية المنطق الإمبريالي، وكذا تشق العلاقات البنيوية الماثلة في النسق الثنائي نفسه، كاشفة عن التناقضات الكامنة داخل ذاك النسق، كالتعارض منور/ مستنير/ enlightened nlightener ذلك الذي يؤشر على ازدواجية عميقة، تمارس فعلها في تكوين العلاقات الاقتصادية، والثقافية، والسياسية، والتي تحط من قدر الذوات المستعمر<sup>(١)</sup>.

وهكذا، نقلتي النظرية بعد - الاستعمارية المعاصرة آخذة في كسر أنماط الفصل الثنائي، وعلى نحو خاص تلك المتعاقبة بالاستعمارية والإمبريالية، وقد أسهم شق أنساق الثنائيات الإمبريالية في التأكيد على التأثير الجدلي التفاعلي، وذاك في مواجهة الإمبريالية.

تفترض الثنائيات الإمبريالية دوما حركة في اتجاه واحد، الحركة من المستعمر إلى المستعمر. بيد أن الهوية بعد الاستعمارية تنبثق داخل حيز الإزدواجية، كي تواجه الإمبريالية، ذاك أن دينامية التغيير ليست حركة في اتجاه واحد، دينامية التغيير عبر ثقافية transcultural، حركة حرة غير مقيدة، ومفعمة بتأثير تبادلي.

وها هنا لنا أن نسأل: لمر لا نسلك سُبُل في الوجود لا تعرف الصدع الذي تشيده تلك التعارضات الثنائية؟ حيث يتلاشى الصدع بين الطبيعة والثقافة - على سبيل المثال - حين نقلتي الأنشطة الوالدية المتعاقبة بالنساء لاتنفصل عن ممارساتهن الثقافية. تلك رؤية للعالم، ليست تغلق الذات على ذاتها، بل تنغمس عبرها الذات في علاقات مع ذوات آخر وكذا مع العالم غير الإنساني، تلك طريقة في الوجود تخلو من القسمة الثنائية بين الإنساني والعالم غير الإنساني، بين غناء الإنسان وغناء الطبيعة<sup>(٢)</sup>.

### التنوير «فصل في تاريخ الاستبداد»

بالوسع اعتبار التنوير مغالطة، غموض مطبق، أنه التثام البصيرة والعماء، المعرفة والجهل، الحقيقة والوهم.

يؤشر المشهد المعاصر المائل داخل النظرية الاجتماعية، والنظرية الثقافية والنظرية السياسية، على أن التنوير الحديث قد بات مشروعا مريبًا تثار حياله الشكوك.

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffiths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p. 24.

(٢) دورسيلاك. باركر، الثنائيات والخطاب والتنمية، ص ٤٣.

فقد راح التنوير الأوروبي - عبر القرن الثامن عشر - يؤسس لمشروع كوفي، يتغيا إزاحة - على نحو وحشي - التقاليد العقلانية والأخلاقية الخاصة بالعالم غير الحديث non modern، وغرس معيار وحيد.

ها هنا، وعبر تلك الرؤية تغدو العقلانية والفردانية المصاحبة للتنوير والمائزة له، تغدو جذباء سائهة، تخلو من التأثير في الواقع الأخلاقي والعقلي والثقافي والسياسي<sup>(١)</sup>.

وراحت الإيستمولوجيات التنويرية تقدم العلم الحديث بوصفه محايداً متحرراً من القيم value free، بحث عن المعرفة والحقيقة منفصل ومستقل عن الواقع والقيم الاجتماعية، ما أسهم في أن يغدو العلم وكذا التكنولوجيا أدواتاً سحقاً للتقاليد المعرفية الأخرى، ومن ثم باتت العقلانية التنويرية مدمرة، العقلانية التي تنفصل عن شروط الحياة والقيم الاجتماعية تغدو مدمرة لذاتها أيضاً.

وقد أنبتت المكانة الاستثنائية للعلم الحديث على تلك الإيستمولوجيا، وكذا على نجاح التوسع الأوروبي، حيث كانت رحلات الكشوف وما تلاها من حقبة استعمارية، وكذا تطور العلم الحديث، كل منهما كان شرطاً لنجاح الآخر، وراح يدعم كل منهما الآخر. وعلى هذا، أسست الإيستمولوجيا التنويرية للهيمنة على المعرفة والبشر<sup>(٢)</sup>.

وبعيداً عن الحقبة التنويرية الفريدة - حقبة الحرية والتسامح - افتتح التنوير فصلاً مستجداً في تاريخ الهيمنة والاستبداد، ويهمننا أن نلفت هنا إلى أن ذاك التيار المناهض للتنوير قد انبنى على ائتلاف استراتيجيات نقدية وُسمت بالنظرية بعد الاستعمارية، حيث أسهمت تلك الاستراتيجيات في تفكيك النظرية الاستعمارية، وكذا نقض المشروع التنويري، وذلك لأن كل من الإمبراطورية والتنوير كانا قد تقدما معا ويداً بيد، حيث تم تفكيك البنى التقليدية للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتعاقبة بالشعوب المستعمرة، وتشديد مفاهيم ومؤسسات تؤسس لسلطة الحداثة.

وراح المشروع التنويري يُسهم في دعم امتياز ومعيارية المفاهيم الأوروبية العقلية

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffiths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p.27.

(2) Sandra harding, gender, development, and post-enlightment philosophies of science, in decentering the center, philosophy for multicultural, post colonial, and feminist, Indiana University Press, 1989, p. 250.

والعملية، وهنا يسعنا أن ننوه إلى أن ميشيل فوكوه كان أحد الفلاسفة الذين أسهموا في المشروع بعد الاستعماري المناهض للتنوير، وذلك في كتابه «المراقبة والعقاب» على نحو خاص، حيث كشف فوكوه عن أنه ثمة تعالق فيما بين المعرفة والسلطة، وشم تواشج فيما بين الممارسات الاستبدادية للمعرفة وعلاقات السلطة، ذلك كان إسهاما ملهما، حيث ساعد في تشكل نظرية تنغيا كشف زيف دعاوي التنوير الأوروبي، وبات من اليسير - استنادا إلى فوكوه - فهم الكيفية التي تم عبرها صوغ القوانين والسياسات الاقتصادية في تلك الحقبة - مع بدايات الإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر - حيث انبثقت العقلانية المستجدة في أعمال مفكري التنوير، وراحت توفر تبريرا سافرا للممارسات الاستبدادية.

وكذا راح التنوير الفرنسي يبشر بتحول في نظرية «الأمة»، تحول من شرعية الدولة القومية والتأسيس لمفهوم المبادئ الكونية (حقوق الإنسان والمبادئ العامة)، وذلك بدلا من الجذور التاريخية، وكان الباعث على خلق تلك الرؤية الكونية نزعة ثورية عابرة للحدود، لنا أن نلمسها في تأثير فكر التنوير على دول أوروبا وأمريكا في القرن الثامن عشر<sup>(١)</sup>.

وقد أسهمت الحداثة في التمهيد للمشروع الفلسفي التنويري، إذ الحداثة بوصفها حقبة التفوق على الماضي، قد باتت داعمة لإحلال عقل الإنسان المستقل والعقلانية محل الإلهي والمقدس، وقد أفضى هذا إلى رفض تبجيل كل ما هو تقليدي.

ولنا أن نلفت هنا إلى أن المشروع الفلسفي التنويري - بوصفه تنظيما عقلانيا للحياة الاجتماعية اليومية - قد تواشج والتحم بافتراض سلطة الثقافة الأوروبية، وأن العلم والعقلانية هما المساران الوحيدان للوعي الحديث، وأن المؤسسات الاجتماعية الحديثة تملك خلق حياة مبهجة آمنة للإنسان وللبشر في كل مكان، عن ذلك النمط قبل - الحديث أو قبل الحداثي<sup>(٢)</sup>.

## الكونية «سردية شوفونية»

يفترض مفهوم الكونية universalism universality وجود سمات - ليس بالوسع تجاوزها أو اختزالها - تسم الحياة والخبرة الإنسانية، وتلك السمات تتخطى الشروط الثقافية المحلية.

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffiths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p.35.

(2) IBID, P. 36.

حيث يقدم مفهوم الكونية رؤية مهيمنة تهيمن على العالم، تفرض قيم وخبرات وتوقعات الثقافة المهيمنة، وذلك بوصفها تصلح لكل إنسان والبشر عامة، وعلى هذا باتت الكونية حاسمة للمهينة الإمبريالية، وذلك لأنها تفترض الإنسانية العامة common humanity.

يتعامي مفهوم الكونية عن الاختلافات الثقافية، ولذا راح يسهم في بسط الخطاب الإمبريالي لأجل تحضير الذوات المستعمرة، وتتبدى تلك الظاهرة - على سبيل المثال - في الأدب الإنجليزي، حيث تتحدد قيمة عمل الكاتب عبر تحقيقها شرط الكونية الإنسانية. وعلى هذا، ثم تعالق فيما بين الكونية والمركزية الأوروبية<sup>(١)</sup>.

وقد أسهمت سطوة هذا الخطاب في تقديم الذات الإنجليزية بوصفها كونية، ما أفضى إلى أن تغدو أداة للمهينة السوسيوسياسية في الهند - عبر القرن التاسع عشر - وفي مستعمرات أُخرى.

وثمة سمة مهمة تسم مفهوم الكونية، وتلك السمة هي السيولة، وقد أسهمت تلك السيولة في أن تمكث الهيمنة الثقافية طويلا حتى عقب الاستقلال، وكذا عبر العالم بعد الاستعماري. ويسعنا أن نلفت هنا إلى حقيقة مهمة، وهي أن هيمنة العلم الغربي والإمبريالية تتأني حين تأبى الإيستمية أن تكون مصاحبة للكوزمولوجيا، حين ترى الإيستمولوجيا أنها هي ذاتها كوزمولوجيا، وها هنا تتعامي عن الأنساق المعرفية الأخرى وكذا تتعامي عن التقنيات المحلية، وعلى هذا تحول دون تآلف العلم الغربي مع الأنساق المعرفية الأخرى<sup>(٢)</sup>.

الكونية خطاب متحرر من الثقافة، وشم مثال يقدم الكونية بوصفها خطابا متحررا من الثقافة culture free discourse، وذلك هو الرياضيات، حيث تقدم الرياضيات حقائق كونية، وها هنا تتبدى الحتمية الثقافية المتعاقبة بالخطاب الإمبريالي، فنحن حين نقول: مجموع زوايا المثلث تساوي قائمتين، هنا لنا أن نساءل:

□ من أين ولر غدا مجموع زوايا المثلث يساوي قائمتين؟

□ لر ننشغل بالمثلث وخصا ئصه تحديدا؟

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffiths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p 75.

(٢) دورسيلا ك. باركر، الثنائيات والخطاب والتنمية، ص ٤٨.

والإجابة على هاتيك التساؤلات هي أن ثم أناسا بعينهم حددوا ذلك، وأنها ينبغي أن تكون على تلك الشاكلة<sup>(١)</sup>.

وها هنا يهمننا أن نلفت إلى أن الأفكار الرياضية - كغيرها من الأفكار - بناءات إنسانية، وتملك تاريخاً ثقافياً cultural history. فثمة شكول كثر تتعالق بالرياضيات، لكن الرياضيات الماثلة الآن تقدم بوصفها كونية، وذاك لأنها قد تأسست عبر أنماط ثقافية في التفكير كالعقلانية، والذرية، والموضوعية، وتلك الأنماط الثقافية هي المائزة للتقاليد الفلسفية في المجتمعات الأوروبية.

وثمة سمة مهمة أخرى - بل هي إحدى أهم سمات مفهوم الكونية - وتلك السمة هي أن هذا المفهوم يملك قدرة على النفاذ، ذاك النفاذ الذي تمارسه الكونية على نحو جد رهيف، حيث تنفذ داخل أكثر العقول حساسية تجاه الإختلافات الثقافية، وكذا أكثر العقول قدرة على ممارسة التحليل الجذري، وثم مثال جلي على ذلك هو نمط الكونية التي ليس يسعها أن تفلت من قبضة العلم الغربي، وذلك بوصفه المعيار والمرجعية الحقة للمقارنات الإستمولوجية، ودونما أن نسأل لمرغدت تلك المقارنات حتمية هكذا؟<sup>(٢)</sup>

وها هنا نلفت إلى أن فلسفات العلم بعد التنويرية تقدم العلم الغربي بوصفه نسقا معرفيا محليا، العلم الغربي ليس سوى أنساق معرفية محلية كثر، التثمت معا على نحو برجماتي، وعبر طرائق ليست متناغمة على نحو ضروري<sup>(٣)</sup>.

## مفهوم وكارتوجرافيا cartography المركز/ الهامش

مفهوم (المركز/ الهامش) أحد أكثر المفاهيم إثارة للجدل داخل خطاب الهيمنة، حيث يفترض ذاك المفهوم التعارض الثنائي الذي يسهل عبه تقسيم العالم، فذاك التعارض الثنائي كان حاسما للهيمنة وديمومتها.

(1) Bill Ashcrof, Gareth Griffiths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p.70-71.

(2) Sandra harding, gender, development, and post-enlightment philosophies of science, in decentering the center, philosophy for multicultural, post colonial, and feminist, Indiana University Press, 1989, P.252.

(3) Bill Ashcrof, Gareth Griffiths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p.37.

لقد انبنى التأسيس التدريجي للإمبراطورية على هيراركية راسخة، كي يغدو المستعمر «آخر» حيال الثقافات المستعمرة، ومن ثم يغدو مفهوم الهمجي متحققا فحسب، إذا تحقق مفهوم المتحضر المتعارض معه.

وعلى هذا، تأسست جغرافيا الاختلاف، حيث تم تخطيط تلك الاختلافات (كارتوجرافيا) لتغدو تخطيطا استعاريا، لايؤشر على رسوخ جغرافي، ولكن يرسخ لسلطة الإمبريالية الأوروبية، وقد باتت أوروبا معروفة جغرافيا بوصفها المركز، وذلك ماديا وعقليا، وكل ما يقع خارج هذا المركز يعد هامشيا من حيث الثقافة والسلطة والحضارة<sup>(١)</sup>.

وتم تحول طال الوعي الأوروبي بالشرق، تحول من وعي يبنى على التأمل إلى ظاهرة إدارية واقتصادية بل وحرية، وكان التغير الجوهرى تغير في نمط الإدراك الجغرافى والمكانى فيما يخص الشرق، حيث كان التعريف القديم للشرق بأنه المكان الجغرافى الذى يقع شرقى أوروبا، تعريفا سياسيا ومذهبيا وخياليا<sup>(٢)</sup>.

ويهمنا أن نلفت هنا إلى أن مهمة المستعمر كانت جذب الهامش داخل مجال تأثير المركز المستنير، وقد باتت تلك المهمة هي التبرير الأساس للهيمنة الاقتصادية والسياسية عبر منتصف القرن التاسع عشر على نحو خاص.

وتم من يرى أن مفهوم المركز / الهامش يبدو مثيرا للجدل، وذلك لأنه يفترض أن محاولات تعريف نموذج المركز / الهامش قد تم توظيفها لترسيخه بدلا من تفكيكه.

وقد راحت النقود بعد الاستعمارية توظف هذا النموذج في تعرية تلك الثنائيات، بدلا من تأكيد استقلالية الهامشين (الهامش) وتقويض مفهوم المركز جذريا، وكذا تفكيك دعاوى الهيمنة الأوروبية بشأن تلك الوضعية الراسخة والمتميزة عن أولئك الآخرين.

وقد أسهمت تعرية نماذج «مركز / هوامش» المتعاقبة بالثقافة في نقض دعاوى كل ثقافة تزعم أنها تملك جسدا خالصا متجانسا، حيث الثقافات كلها مشيدة تاريخيا<sup>(٣)</sup>.

ويهمنا أن نوه هنا إلى أنه قد تم توظيف الخرائط كأدوات رمزية للدعاية، ويتبدى هذا

(١) إدوارد سعيد، الاستشراق، ص ٣٣٠.

(2) Bill Asherof, Gareth Griffiths and Helen Tiffin. post clonial studies the Key concept, p.37.

(3) Ibid, P.38.

عبر تحليل تخطيط اطلس مركاتور، والذي يفصح عن أن تخطيط الخرائط قد بات أداة قوية لترسيخ المركزية الأوروبية، حيث غدت خطوط العرض الأوروبية مرجعية رئيسة يتكأ عليها مفهوم هيراركية العالم، وذلك لأجل تجسيد تلك الهيراركية بوصفها حقيقة جغرافية، أو تجسيد التوجهات الأوروبية نحو العالم بوصفها حقائق جغرافية.

الكارتوجرافيا الأوروبية تخلق ما يؤسس الحقيقة الجغرافية المعاصرة، فقد غدا تعريف الثقافات بأنها استوائية حيث الإعتدال هو المعيار، وكذا المسكون على نحو كثيف أو الأقل كثافة، أو غنى أو فقير، هذا التمايز تأسس عبر ممارسة الدعاية والهيمنة وقد بات راسخاً<sup>(١)</sup>.

تلك التقنية غدت سمة في خطاب الهيمنة الحديث، حيث تظهر كيف تسهم علوم الكارتوجرافيا في إعادة صوغ العالم عبر القرون القليلة الأخيرة.

## تاريخ العلم وتاريخ العلم

### History of Science & Historiography of Science

حال مقارنة مفهوم «تاريخ» سنلقى أن ثم مستويين متغايرين لمصطلح «التاريخ»

:History

المستوى الأول «التاريخ» (ت<sub>١</sub>): يصف الظواهر والوقائع التي حدثت في الماضي.

المستوى الثاني «التاريخ» (ت<sub>٢</sub>): يحلل البحوث التاريخية ونتائجها. وعلى هذا، يغدو موضوع (ت<sub>٢</sub>) هو (ت<sub>١</sub>)، وذلك على غرار موضوع العلوم الطبيعية هو الطبيعة nature.

إذ المعرفة العلمية الطبيعية ليست هي الطبيعة. بل تفسير نظري لها، ومن ثم يقوم (ت<sub>٢</sub>) بتحليل (ت<sub>١</sub>) كما تقوم العلوم الطبيعية بتحليل وتفسير الطبيعة<sup>(٢)</sup>.

ويهمنا أن نلفت هنا إلى أن الوقائع التاريخية وأحداث الماضي ليست هي المستوى الثاني لمصطلح التاريخ، وذلك أن ت<sub>٢</sub> ليس هو الماضي، بل تفسير وتحليل نظري له، وإذا كان نفر من الفلاسفة الوضعيين الراديكاليين يرى الوجود الموضوعي للطبيعة بوصفه وهما، وأن ليس

(1) Helge Kragh An Introduction to the Historiography of Science, Cambridge University Press, 1987, P.20.

(2) Ibid.p.21.

بالوسع التمييز بين الطبيعة وبين معرفتنا بها. على تلك الشاكلة يزعم بعض المؤرخين المثاليين أن التمييز بين (ت<sub>١</sub>) و(ت<sub>٢</sub>) ليس يجوز.

### تأريخ العلم: Historiography of Science

يقارب مفهوم التأريخ Historiography ت<sub>٢</sub> أي المستوى الثاني.

### وفيما يخص الممارسة التاريخية ثم معنيان للتأريخ:

□ قد يعني الكتابات التاريخية المتخصصة Professional، أي التقارير التاريخية المتعاقبة بأحداث الماضي، أي كتب التاريخ وكتابات المؤرخين.

□ وكذا قد يعني فلسفة للتاريخ، أي رؤية فلسفية نظرية يقدمها المستوى الثاني، وها هنا يغدو التأريخ Historiography حقل — شارح meta-discipline موضوعه هو ت<sub>٢</sub>، المسترولوجرافي ليس تاريخا وصفيا فحسب، بل هو تحليل لـ التأريخ نفسه<sup>(١)</sup>.

وتم تساؤل يتقدم ها هنا وهو هل التاريخ ترتيب كورنولوجي لـ الأحداث والوقائع فحسب؟

حين النظر لـ التاريخ على أنه دراسة الوقائع الإنسانية في الزمان وكفى، وأنه حال الشروع في ترتيب تلك الوقائع ترتيبا زمنيا، نكون قد أرسينا أسس الرؤية التاريخية، فهذا لا يمس الخصيصة المائزة للتاريخ، وكذا لا ينسحب على الممارسة التاريخية جملها.

إذ ليست التقارير الكرونولوجية التي من قبيل (استيقظت في السادسة)، و(ذهبت إلى العمل في الثامنة) هي التاريخ، التاريخ — على الحقيقة — غوص داخل الماضي وليس ترتيبا زمنيا له فحسب.

وثمة من المؤرخين من يلفت إلى أن الظاهرة التاريخية ينبغي لها أن تتصف بالفرادة في الزمان والمكان، وذاك كيما يتسني وصفها بـ (التاريخية)، الحوادث التاريخية - إذا - حوادث فريدة في الزمان والمكان، وذلك بحكم وقوعها في الماضي. فحين نقول «ولد نيلز بوهر في كوبنهاجن عام ١٨٨٥، فتلك تعد حادثة فريدة، حيث أنه يستحيل تكرارها أو تعميمها».

(1) Ibid.p.22.

بيد أن الدعوة لأن يغدو التاريخ رسدا لحوادث فريدة في الزمان والمكان فحسب، هي دعوة جد واهية، وذلك أنها لن تقارب التاريخ في تعالقه ب العلوم الطبيعية، حيث يتعدى الفصل الميثودولوجي هنا، وكذا يغدو من غير الممكن تأسيس الواقعة التاريخية بوصفها وجودا ثابتا في الزمان والمكان فحسب، هذا فضلاً عن أن التاريخ تعالقات وبنيات ووجهات لايسعنا اختزالها في عدد من الحوادث الفردية، ينضاف إلى ذلك أنها ليست ما كثرة في الزمان والمكان. فحين القول: «الابتكارات التكنولوجية حققت نموا اقتصاديا»، و«تأثرت الفلسفة في القرن السابع عشر ب الأفكار الإمبريقية»، فتلك عبارات تاريخية بامتياز<sup>(١)</sup>.

ولنا أن ننوه هنا إلى أنه قد يكون ثم دافع لأن يغدو التاريخ رسدا لحوادث فريدة في الزمان والمكان فحسب، وتلك هي السمة المائزة للعلوم التاريخية عن كل من السوسولوجيا، والسيكولوجيا، والاقتصاد، لكن هذا العزل وإن كان يحقق استقلالية التاريخ، إلا أنه سيفضي به إلى الجذب.

### العلم:

الشرط الثاني لمصطلح «تاريخ العلم» هو العلم Science، وهو شكل خاص من شكول الممارسة الإنسانية.

وقد يغدو مهما هنا التمييز بين مستويين للعلم:

**المستوى الأول:** ويعني العلم ( $S_1$ ) Science بوصفه جمعا للقضايا الإمبريقية والصورية المتعاقلة بالطبيعة، أعني النظريات والمعطيات التي تشكل المعارف العلمية المقبولة، وكذا الإنتاج العلمي الذي يظهر في الكتب الدراسية والمقالات.

وها هنا يجب ألا نفهم ( $S_1$ ) بوصفه ممارسة للعلم، ومن ثم لا يلجأ المؤرخ لهذا المستوى من العلم.

**المستوى الثاني:** ويعني العلم ( $S_2$ ) Science بوصفه ممارسة إنسانية، وليس شرطا أن تفضي تلك الممارسة إلى معارف صادقة وموضوعية بشأن العالم الطبيعي، وهذا المستوى يتعالق بالتاريخ على نحو جد قوى<sup>(٢)</sup>.

(1) Ibid.p.22.

(2) Ibid.p.22.

## تساؤل كون Kuhn

كان التساؤل الذي طرحه توماس كون Kuhn حال تحليله المعمق لموضوع التطور العلمي هو:

كيف لتاريخ العلم أن يتواشج بنظرية المعرفة مسهما فيها على نحو مشروع؟

والتاريخ الذي يقصده كون هنا ليس التاريخ «الداخلي» Internlist history التقليدي أو التاريخ العقلي، التاريخ الذي يقصده كون هو التاريخ الخارجي Externalist history الذي راح يلوح في الأفق.

ذاك أنه في العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية، انبثقت مقاربات العلم الحديث بوصفه ظاهرة تاريخية ثقافية سياسية، ليست تختلف عن غيرها من المؤسسات والبنى الاجتماعية، ما أسهم في حدوث ثورة داخل الدراسات الخاصة بالعلم<sup>(١)</sup>.

وفيما قبل ذلك، ومع بدايات عام ١٩٣٠ أكد الفيزيائي والفيلسوف ومؤرخ العلم برنال J.D.Bernal على أن ثمة حاجة ملحة إلى مقارنة العلم بوصفه مؤسسة، وذلك عبر فروع السوسولوجي والاقتصاد والفلسفة، ولذا نشأ علم العلم «Science of Science»<sup>(٢)</sup>.

وكذا عارض برنال فكرة «الثقافتان» تلك التي تؤسس ثنائية فيما بين العلم والفن، فهما معا يشكلان الثقافة، وأية محاولة لفصل إحداهما عن الأخرى، إنما تعزي إلى التفتيت البرجوازي الشائه للمعرفة، حيث أسهمت البرجوازية في تفتيت المعرفة، وذلك عبر تأصيل الهيراركية داخل المعرفة، إذ تقدم الفيزياء بوصفها صارمة تنبني على التجريد وكذا الرياضيات، وتقدم البيولوجيا بوصفها ناعمة وكذا العلوم الاجتماعية، هذا فضلاً عن الثنائيات المعرفية التي من بينها ثنائية النظرية/ التطبيق، والعلم/ التكنولوجيا، والعقلي/ اليدوي<sup>(٣)</sup>.

(1) Sandra Harding, is Science multicultural? Postcolonialisms, Feminisms, and Epistemologies, Indiana University Press, 1998, P.1.

(2) Rose, steven, the limits of science, in science and beyond, institute of contemporary arts, (London England 1986).p. 2.

(3) Ibid.p. 3.

وعلى هذا، لم يعد تاريخ العلم صندوق الحكايات النادرة، كلاولر يعد تقسيم كورنولوجي أمّلته دراسة الإنجازات العلمية الفائتة، تلك المدونة في الكتب الكلاسيكية والحديثة فحسب، حيث تحلق الفلاسفة وعلماء الاجتماع ومنظري المعرفة وآخرون غيرهم حول المهستيروجرافي، ذاك الذي يدنو من أن يكون «ثورة» في فلسفة العلم<sup>(1)</sup>.

بات المهستيروجرافي مسهما في تفكيك التاريخ التقليدي للعلم، وتفكيك أفق السرد الكلاسيكي أو القصة التقليدية للعلم، حدث ذلك التحول - من السرد التقليدي إلى القصة الأخرى - عبر مقارنة العلم في التاريخ science in history.

وقد استبان أن القصة التقليدية للعلم قد تشكلت عبر أبستمولوجيات المركزية الغربية وأيديولوجيات الهيمنة.

القصة التقليدية للعلم تنسجها التواريخ المعزولة Isolationist histories، والتقارير التاريخية الداعمة للمركزية الأوروبية Eurocentric historiography، حيث تتواشج داخل القصة التقليدية مفاهيم كثر كمفهوم «نفق الزمن» «Tunnel of time»، ومفهوم «النشأة المستقلة لأوروبا» «Autonomous rise of Europe»، وكذا مفهوم المعجزة الأوروبية، ومفهوم العصور المظلمة - بوصفها جزءا مظلمًا من تاريخ أوروبا الناصع - ومفهوم الثورة العلمية.

وقد أنبتت القصة التقليدية على التقارير التاريخية الداخلية أو التاريخ الداخلي، ذاك التاريخ الذي يفترض أن تطور العلم يتحقق عبر سمات إبستمولوجية داخلية خالصة، وتلك السمات ماثلة في المنهج التجريبي أو المنهج العلمي بعامه، وكذا معايير الموضوعية والعقلانية. تلك السمات الداخلية من شأنها وحدها أن تحقق تكامل وانسجام ووحدة العلم.

بينما تنكر التقارير التاريخية الخارجية أو التواريخ الاجتماعية للعلم أن بذور التطور العلمي والتكنولوجي تكمن فحسب في ثنايا عقول العلماء وإجراءاتهم البحثية، وهو ما كان يلوح به التاريخ الداخلي.

وكذا تؤشر التقارير الخارجية على أن السياقات الاجتماعية تنفذ على نحو عميق داخل

(1) Sandra Harding, is Science multicultural? Postcolonialisms, Feminisms, and Epistemologies, p.1.

المحتوى المعرفي، حيث تفسح القيم الاجتماعية والثقافية المجال للتعددية الثقافية وللأنساق المعرفية المحلية.

وها هنا لنأخذ نلفت إلى أنه ثم تحول حدث، تحول من التقارير التاريخية الداخلية إلى التقارير التاريخية الخارجية، تحول من القصة التقليدية والتاريخ المعزول المجتزأ إلى القصة الأخرى التفاعلية والتاريخ التفاعلي العولمي.

القصة التقليدية هي قصة المركزية الأوروبية، حيث توشجت القصة التقليدية بالحدث والتنوير وأسس مفهوم الحدث للاستعمار وللمركزية الأوروبية.

وكان مفهوم الحدث modernity قد اشتق من الكلمة اللاتينية modernus، لأجل التمييز بين كل من العصر المسيحي والعصر الروماني الوثني.

وتم توظيف مفهوم حديث Modern في الحقبة القروسطية لأجل التمييز بين الحقبة المعاصرة والماضي «القديم».

بيد أن الحدث ليست تعني هنا والآن فحسب، حيث تشير الحداثة إلى شكول التنظيم الاجتماعي، تلك التي لاحت في أوروبا عبر القرن السادس عشر، وراحت تمتد إلى كل انحاء العالم مع بدايات الكشوف الأوروبية والاستعمار<sup>(1)</sup>.

وعبر التنوير الفرنسي تغير مفهوم الحداثة لتغدو حقبة التفوق في تاريخ الإنسانية (حقبة استثنائية)!!

وقد إنتقل هذا الشعور بالتفوق Superiority من تفوق الحاضر على الماضي، إلى شعور بالتفوق على المجتمعات الأخرى، تلك التي لم تعایش الحداثة، وتم توظيف تفوق الثقافة الغربية بوصفها عقلانية لتغدو تبريراً للنزعة الاستعمارية<sup>(2)</sup>.

وعلى هذا، انبثقت نظرية نظام العالم World System's Theory core periphery، نظرية القلب والأطراف أو الحواضر والتابعين، حواضر هي المركز وأطراف تابعة، وذاك التواشج كامن في بنية النظام الرأسمالي وقد وسع العالم.

(1) Bill Ashcroft, Gareth Griffiths and Helen Tiffin, Post-Colonial Studies the Key Concepts, Routledge 2000, P. 40.

(2) Ibid.41.

تقدم التقارير التاريخية الداعمة للمركزية الأوروبية العلم الحديث بوصفه ظاهرة غربية خالصة، وبوصفه مثال الكونية، وهذا التاريخ المجتزأ أسهم في خلق جهل نسقي Systematic ignorance وأسس للإمبريالية الثقافية.

وكان الطريق إلى تسوية المركزية الغربية والإمبريالية يبدأ من تجاهل التاريخ، والتعامي عن تاريخ الحضارات والثقافات غير الأوروبية.

وكذا كان الطريق لتسوية مفهوم العالم الثالث - وذاك وفقاً لأيديولوجيا الحضارة الغربية - يبدأ بالتعامي عن التاريخ، وها هنا يبدو العالم وكأنه منحه إلهية لأمة بعينها، كيما تتفوق على الأخريات.

ليس ثم عالم ثالث، هذا ليس حقيقياً ومناف للسياقات التاريخية.

تم تسطير تاريخ العلم عبر غمات المركزية الغربية، وهنا ثمة حاجة ملحّة إلى مقارنة تاريخ العلم دونما غمات المركزية الأوروبية.

وحدث التحول مع ظهور مفهوم الهيستروجرافي، حيث راح مفهوم الهيستروجرافي بوصفه تحليلاً للتاريخ نفسه، وكذا بوصفه نظرية أو فلسفة للتاريخ، وفرعاً شارحاً Meta - discipline، راح يقدم سردية بديلة أو قصة أخرى للعلم الحديث.

ولنا أن نلفت هنا إلى أنه ثمة هيستروجرافي الفلسفة Historiography of Ph، وهي تلك المقالات والمصنفات التي تعيد قراءة النظريات الفلسفية، تلك التي قدمت في الماضي وذاك لأجل الدفاع عنها أو نقدها.

وقد تعيد تلك المقالات قراءة النصوص doxographical، لتوصيف وإجمال ما قاله الفلاسفة. وقد تكون تلك المقالات إستعادة للأحداث Retrospective Histories فحسب، وقد تسهم في تصنيف النظريات التي قدمت في الماضي داخل أنماط مختلفة، أو قد تؤشر عليها بوصفها انعكاساً للزمان أو الوقت الذي كتبت فيه، وتلك هي التواريخ الثقافية Cultural histories، وفي الأخير قد يتبدى أن تلك النظريات قد انبثقت عبر محاولة حل مشكلات فلسفية بعينها<sup>(1)</sup>.

(1) Encyclopedia of philosophy, poul Edwards The Macmillan Company and The Free Press, London, P.226.

وتم ما يدعو هنا إلى أن نلفت إلى هيستروجرافي التقليد العلمي الإسلامي، إلى محاولة ابن النديم تحليل تاريخ العلم الإسلامي، حيث حاول عبر نقد السردية الكلاسيكية أو القصة التقليدية التحرر من سطوة الأفكار المسبقة.

لقد رأى ابن النديم أن ثم سرد بديل Alternative narrative يسعه أن يفسر النصوص والوقائع التاريخية على نحو جد عميق، إذ حين يغدو بالوسع بناء سرد يسهم في فهم الدور الأساس للعلم داخل الحضارة الإسلامية، يبيت من اليسير فهم الصلة التي بين العلم الإسلامي والعلوم الأخرى في الثقافات الأخرى.

وذاك أن الفروع العلمية الإسلامية تمثل قمة جبل الجليد فحسب، وتلك القمة قد تقدم صورة منقوصة لاتسهم في توصيف جبل الجليد كله، حيث ينبغي أن تبدأ جذور السرد البديل من المصادر التاريخية ذاتها، وعلى الرغم من صعوبة العثور على مصادر تؤرخ لبدائيات النشاط العلمي، قام ابن النديم بشيء قريب من هذا. وبات من أوائل المنظرين لبدائيات الحقبة الإسلامية.

حاول ابن النديم في كتابه «الفهرس» تفسير التاريخ العقلي للحضارة الإسلامية، وذلك عبر تقديم مسح للإنتاج العقلي، هذا التقرير يمكن اعتباره سردا بديلا، وذاك لأنه يقدم أدوات تسهم في فهم التطورات العلمية التي ذكرها النديم والمفهرسين الذين أتوا من بعده عبر القرن الحادي عشر والثالث عشر<sup>(1)</sup>.

وعلى هذا، هستروجرافي العلم هو تشريح لتاريخ العلم.

ويسعنا النظر إلى الهيستروجرافي بوصفه ثورة في فلسفة العلم، حيث قاد التحول من التاريخ الداخلي للعلم Internalist History إلى التواريخ الاجتماعية، هذا التحول التاريخي تبعه سريعا تحول معرفي، حقبة معرفية مستجدة مصاحبة لإنبثاق التواريخ التفاعلية العولمية، تلك التي تقدم قصة أخرى مستجدة للعلم الحديث.

تنسج التواريخ التفاعلية العولمية قصة أخرى للعلم الحديث، قصة التدفق المتقاطع والتقاء الشرق والغرب، قصة العلم في التاريخ Science in history، أي العلم في سياق التاريخ

(1) George saliba, Islamic science and the making of the European renaissance, The MIT Press, Cambridge, Massachusetts, London, England, c, Massachusetts institute of technology. 2007, p. 112.

العولمي، وليس من منظور المركزية الأوروبية، ذاك المنظور الذي هيمن على الدراسات التقليدية للعلم.

وهنا يهمننا أن نلفت إلى أن التواريخ الخارجية تفصح عن صورة مغايرة تتعالق بالماضي والحاضر والمستقبل، صورة أنصع وأقرب إلى الحقيقة، عن تلك الصورة التي أرسها تقارير نفق الزمن Tunnel of time والمركزية الأوروبية عن الأوروبيين والتقاليد العلمية والتكنولوجية الأخرى.

وكذا تفصح التواريخ الخارجية عن وقائع واجراءات لم تحظي بأدني إهتمام داخل الرؤية التقليدية القديمة، ما قد يسفر عن زعزعة الأسس التي انبت عليها تقارير المركزية الأوروبية<sup>(١)</sup>.

وإذا كانت التساؤلات التي من قبيل، أين تذهب الكواكب البلورية؟ ليس ثم إجابة لها بعد كوبرنيقوس وجاليليو، كذا بعض التساؤلات الإمبريقية الفلسفية القديمة التي انبت عليها تقارير المركزية الأوروبية والتقارير الداخلية Internalist، لم تعد لها أية إجابة<sup>(٢)</sup>.

وتم حاجة إلى أن نعيد قراءة النصوص الفلسفية الرئيسة، وكذا الميثودولوجيات والمفاهيم والأطر التصورية، ما قد يسفر عن نقد للهويات البيضاء White Identities، تلك التي تأسست على الظلم، وانبت على تبعية الملونين<sup>(٣)</sup>.

لقد غدا كل من العلم والتكنولوجيا سلطة سياسية مهمة لأجل ترسيخ الاحتكار (الأسبالية الاحتكارية) والإمبريالية، وكذا ترسيخ العنصرية البيضاء الفردية والمؤسسية<sup>(٤)</sup>.

وعلى هذا، ثم ما يدعو إلى تقويض الفكر الإمبريالي المتعالق بالعلم والطبيعة والتاريخ، وكذا الممارسات العلمية والتقنية المتنامية في الشمال والجنوب.

(1) Sandra Harding, is Science multicultural? Postcolonialisms, Feminisms, and Epistemologies, Indiana University Press, 1998, P.37.

(2) Ibid. p.38.

(3) Alison Bailey, Locating Traitorous Identities: Toward a View of Privilege-Cognizant White Character, in Decentering the Center, Philosophy for Multicultural, Postcolonial, and Feminist, Indiana University Press, 2000, P.284.

(4) Sam Anderson, Science, Technology and Black Liberation, in the Radicalisation of Science, the Macmillan Press, 1976, P.118.

تكشف فلسفة العلم بعد الحدائية عن أن شروط إنتاج المعارف الواقعية والعقلية تستدعي نمطا من العارفين، وكذا أنساقا معرفية مغايرة لتلك الأنساق المألوفة لدى العارفين الخانعين، أولئك الذين كافحوا لأجل التعرف على نسق معرفي واحد.

وقد انبثق داخل فلسفات العلم بعد الحدائية مفهوم التعددية الثقافية، ذاك الذي راح يتحدى كونية العلم الغربي ومركزية الثقافة الغربية، وذاك لأجل الدفاع عن الأنساق المعرفية المحلية والخصوصيات الثقافية المتعاقبة بالثقافات الأخرى، وكذا لأجل خلخلة المركز والمركزية الغربية، كي تتقدم الهوامش والاطراف.

وعلى هذا، ثم حاجة إلى منظور تاريخي مستجد للعلم، هو المنظور الحضاري.

ثم حاجة إلى «منظور حضاري» *civilizational perspective* يسهم في تقديم رؤية بعد - تاريخية *Meta historical* لطبيعة العلم. هذا المنظور يُقدم العلم الغربي الحالي بوصفه «علما حضاريا» *Civilizational Science*، أسهمت في تأسيسه شروط اجتماعية وشروط آخر، وهو ما يستدعي التقصي والتنقيب بغية اكتشاف حضارات أخرى للعلم<sup>(١)</sup>.

## نسق جنس / جنوسة Sex/ Gender system

يؤسس نسق جنس / جنوسة Sex/ Gender system لهيمنة الرجل، حيث يمنح الرجل الحق في أن ينتج ويعيد إنتاج الشروط الجنسانية *Sexuality* والحياة العائلية وبني القرابة. ويسهم نسق جنس / جنوسة في إعادة إنتاج سوسيولوجي للحياة العائلية وبني القرابة مثله مثل عملية الولادة، وذلك بوصفها إعادة إنتاج بيولوجي للأنواع.

وبالوسع القول أن نسق جنس / جنوسة نظام أساس للحياة الاجتماعية، طوال التاريخ وعبر كل الثقافات مثله مثل العنصرية والطبقية<sup>(٢)</sup>.

ويتجلي نسق جنس / جنوسة عبر شمول تتغير بتغير الثقافات والطبقات، وكذا يسهم

(1) Susantha Goonatilake: Toward A global Knowledge, Mining Civilizational Knowledge, Indiana University Press. 1988, P.22.

(2) Sandra Harding, Why Has the Sex /Gendre System Become Visible Only Now?, in Discovering Reality, Feminist Perspectives on Epistemology, Metaphysics, Methodology, and Philosophy of Science, D. Publishing Company, 1983, p.312.

في تحديد شكول الحيووات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، حيث يختلف من المجتمع الأموي إلى المجتمع الأبوي Patrilineal، ومن مجتمع ما قبل الرأسمالية إلى المجتمع الرأسمالي، من الطبقة الأرستقراطية إلى الثقافات الديمقراطية، ومن المجتمعات الغنية إلى المجتمعات الفقيرة ومن البيض إلى السود، وعلى الرغم من ذلك يملك نسق جنس/ جنوسة دينامية باطنة قابلة للاكتشاف.

بيدع نسق جنس/ جنوسة - مثله مثل العنصر والطبقة Race and Class - موأتمات تحدد الممارسات الاجتماعية للحياة اليومية، وتحدد سمات المؤسسات الاجتماعية، وأنماط التفكير جُلهأ، وليس المؤسسات الاجتماعية الكبيرة فحسب.

يتداخل نسق جنس/ جنوسة مع متغيرات اجتماعية عضوية يسعنا تلمسها في تفاصيل فن العمارة الأهلي والعام، وفي افتراضات مشكلات الفلسفة، وفي أنماط التكنولوجيا وخيارات الثقافة، وفي الفرق بين الطبيعة والثقافة، وحتى عبر نظم الحكم.

تفصح جينات نسق جنس/ جنوسة عن ذاتها عبر تفاعلات اجتماعية كُثر، تلك التي تحدث بين الإنسان وأي جنس Sex، أو عمر، أو طبقة، أو عنصر، أو ثقافة<sup>(١)</sup>.

ليس ذلك فحسب، بل بالوسع قراءة وقائع التاريخ بوصفها مفتاحا لحل ذاك النسق الملغز.

وذاك أن نسق جنس/ جنوسة هو نظام أساس لـ الحياة الاجتماعية طوال التاريخ، وعبر كل الثقافات مثله مثل العنصر والطبقة، حيث أنه متغير عضوي اجتماعي، وليس ينجم عن شروط أُخر.

وقد أسهم الكشف عن نسق جنس/ جنوسة وما ينظم عليه عن مدى الحاجة إلى القيام بمراجعة رؤيتنا للعلم، فإذا كان هذا الاكتشاف يدعو إلى أخلاقيات وسياسات مستجدة، فإن بوسعنا أن نلفت إلى أن اكتشاف نسق جنس/ جنوسة يستدعي ثورة داخل الإستمولوجيا<sup>(٢)</sup>.

وتلك دعوة إلى إستمولوجيا مستجدة ليست مقيدة بقيود الجبر - الذاتي، تلك المتعاقبة بإستمولوجيات الواقعية والأداتية أو الماركسية.

(1) Ibid. p. 312.

(2) Ibid. p. 311.

ولنا أن نوه هنا إلى أن نسق جنس / جنوسة ليس يفصح عن قدرات طبيعية غير معطلة اجتماعيًا.

وها هنا لنا أن نسأل عما عساه يعني نسق جنس / جنوسة؟

ثمة مقاربات منظمة كثر عبر الفلسفات النسوية، حيث تلفت إلى هذا المفهوم بوصفه ماثلا عابرا للثقافات والحدود، وبالوسع تلمسه في ثنائية الطبيعة / التاريخ Nature/ History.

ويبدو أن كل مقاربات البحوث النسوية كانت محاولة لإيضاح هذا الوجه أو ذاك من أوجه نسق جنس / جنوسة، في بنية الحياة الاجتماعية والفكر الاجتماعي، في هذا المجتمع أو ذاك، اليوم أو فيما مضى. حيث يسعنا النظر إلى قضايا مثل «أبوي»، «كراهية النساء»، «أدوار - الجنس»، «التمييز ضد المرأة»، و(التقسيم الأولي للعمل على أساس الجنس) بوصفها كلها تجليات لنسق جنس / جنوسة.

ولنا أن نوه هنا إلى أن تعرية نسق جنس / جنوسة ليست تستدعي مراجعة لعديد من النظريات الأخلاقية والسياسية فحسب، بل تستدعي في الأساس ثورة داخل الأبنتمولوجيا.

ولكن لمر؟

كي نقدم إجابة لنا أن نطرح تساؤلا:

لر بات نسق جنس / جنوسة مدرك الآن فحسب؟ وما دواعي اكتشافه الآن، وفي تلك اللحظة التاريخية، أي لر لر يكتشف في عام ١٧٧٦، أو ١٨٤٨، أو ١٩١٩؟

وألفت هنا إلى أننا لانتغيا تقديم اجابة، فما يهنا هو تبيان لر غدا ذاك التساؤل يحوز معقولية وينظم على مكونات إبستمولوجية مهمة، ولر لر يكن بوسع الإبستمولوجيا التقليدية طرح مثل ذاك السؤال؟

ها هنا لنا أن نلفت إلى أن تاريخ العلم يفصح عن أن الاكتشافات العلمية ليست وليدة «وجدتها»، أي ليست تأتي عبر إبداع فردي، ذاك المعتقد الذي رسخه تاريخ وفلسفة العلم التقليدية ودفننا إلى قبوله دفعا، وعلى العكس، الإبداعات ليست سوى نتاجات تدرجية منظمة و متمهلة ل تحول الباراديم Shift Paradigm<sup>(1)</sup>.

(1) Ibid. p.314.

وتجادل الإستمولوجيا النسوية بشأن جواز إقامة حدود فاصلة فيما بين وقائع/ قيم، وكشف/ تبرير، وإستمولوجيا/ أنطولوجيا، وتزعم أن محتوى العلوم (ومن بينها العلوم الناضجة) يأتي انعكاساً لإنهمام وأيديولوجيا من يدعون العلم، وكذا تزعم الإستمولوجيا النسوية أن ثم تداخل فيما بين الجنوسة والقيم ومحتوى ومناهج العلوم، وأن تطور حقل الهيروديناميك - المتهمل - إنما يعزى إلى كراهية الذكور له، وذلك مقارنة بامتياز مؤسس على الجنوسة حظيت به الرياضيات الخطية<sup>(١)</sup>.

وقد أسهمت الإستمولوجيا الواقعية في توجيه البحث العلمي الطبيعي والاجتماعي عبر القرون الثلاثة الأخيرة، حيث تزعم أن الشروط الاجتماعية والتاريخية تعوق القدرات الإنسانية الطبيعية وتحول دون الوصول إلى حقائق صادقة.

بيد أننا نلقى التأريخ النسوي يفسر الوقائع الماثلة داخل مسارات العلم عبر شروط من خارج العلم، وثم دليل مألوف على ذلك هو نظرية أرسطو المتعاقبة بإعادة الإنتاج حيث الذكر هو الفاعل، والأنثى هي المادة المدعنة<sup>(٢)</sup>.

الذكر هو الصورة والأنثى هي المادة<sup>(٣)</sup>، وذاك يعد انعكاساً لأيديولوجيا الجنوسة، وكذا يزعم التأريخ النسوي أن كل من النظرية والممارسة العلمية ينظمران على انحياز الجنوسة، وأن العلم قد غدا أكثر انحيازاً حين أزاحت الفلسفة الميكانيكية الرؤية الكيميائية للعالم<sup>(٤)</sup>.

وذاك لأنه تاريخياً: ليس بوسع الشروط الاجتماعية تطوير القدرات الإنسانية الطبيعية كي تغدو مسهمة في تقديم حقائق مكتملة غير شائهة (معتقد صادق عن الواقع) كما يزعم الأبستمولوجيون، أو معتقد صادق بشأن اضطراد الطبيعة والعلية والحتمية كما يزعم فلاسفة العلم<sup>(٥)</sup>.

(1) Noretta Koertge, 'New Age' Philosophies of Science: Constructivism, Feminism and Postmodernism, in Philosophy of Science Today, Clarendon Press. Oxford, 2003, P. 90.

(2) Ibid, P.91.

(3) Noretta koertage, how might we put gender politics into science? In philosophy of science vol. 71, 2004, p. 869.

(4) Noretta Koertge, 'New Age' Philosophies of Science: Constructivism, Feminism and Postmodernism, in Philosophy of Science Today, P.91.

(5) Sandra harding, why has the sex/gendre system become visible only now?, in discovering reality, feminist perspectives on epistemology, metaphysics, methodology, and philosophy of science, D.P, 1983, p. 315.

وعلى هذا، تفترض الإستمولوجيا الواقعية أن محاولة تقديم تقارير علمية سببية تتعاقب بدور الشروط الاجتماعية في إنتاج «المعتقد الصادق» هي محاولات غير عقلانية Unintelligible، ويرى نفر من السوسيولوجيين أن رفض هذا الافتراض - تقديم تقارير سببية وتحليلات علمية تتعاقب بالشروط الاجتماعية - بالوسع تبريره، فليس ثمة حاجة للقيام بتحليلات علمية وسببية للشروط الاجتماعية المتغيرة التي أسهمت في وضع نظام مركزية الشمس أو تطور الأنواع، أو نسق جنس/ جنوسة، نحن بحاجة فحسب إلى تحليل الشروط الاجتماعية التي تسهم في خلق أخطاء الفكر، والعقبات التي تكبل «القدرات الإنسانية الطبيعية»، تلك الماثلة داخل الحياة الاجتماعية قبل الوصول إلى تلك الاكتشافات العلمية.

وتم نفر من السوسيولوجيين من ينكر دور الشروط الاجتماعية في إنتاج معتقد مقبول، وذاك بزعم أنها تستنتج نتائج تتنافى مع العقل وليست صادقة، من مقدمات افتراضية تزعم أن الشروط الاجتماعية تسهم في إنتاج معتقد صادق (True Belief).

## خاتمة

ليست تلك المفاهيم فحسب، ثم مفاهيم آخر كُثر تلف الحاضر والواقع المعيش، نسوق منها مفهوم نظرية نظام العالم world's view system أو الاستعمارية الجديدة، حيث يؤشر هذا المفهوم على عجز ما يسمى باقتصاديات العالم الثالث عن تحقيق اقتصاديات حرة وهوية سياسية تحت هيمنة العولمة، وعلى هذا تمت هيكلة النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للعالم، وكذا دشتت تلك النظرية النظام الرأسمالي بوصفه النظام الاقتصادي للعالم منذ القرن السادس عشر، وها هنا ليس بالوسع الحديث عن اقتصاديات داخل حدود الدولة القومية ولا مجتمع ولا مراحل نمو، وذاك لأن كل مجتمع هوجزء من النظام الرأسمالي العالمي.

وقد أسهم النظام الرأسمالي في التأثير على السياسات القومية، والطبقات، والإثنيات والعلاقات العالمية على نحو جذري.

وعلى هذا، يسعنا أن نخلص إلى أن :

□ العلم خطاب سياسي حيث تنتقل المفاهيم من داخل الحقول المعرفية لتغير الأجندة السياسية، العلم سلسلة من الخطابات السياسية، وذاك أن لغة العلم مختزقة أيديولوجيا،

تحترقها أيديولوجيات الهيمنة الكامنة في ممارسات وبناءات معرفية وحقول علمية كثر.

□ يسعنا أن نؤشر على إبستمولوجيا العلم الحديث بوصفها استبدادية وحشية، راحت تؤشر على العلم الحديث بوصفه ظاهرة غريبة خالصة، وكذا بوصفه مثال الكونية، حيث شيدت كونية العلم الغربي، وأسست لمركزية العلم والثقافة والذات الغربية، وعلى هذا اشترعت طمس الهويات الثقافية، وتدمير الأنساق المعرفية المحلية المائزة لثقافات أخرى كثر.

□ العلم الغربي ليس سوى نسق معرفي محلي، وبالوسع النظر إلى العلم الغربي بوصفه مكونا من عدد من الأنساق المعرفية المحلية تواشجت معا لأهداف برجماتية، وليست منسجمة على نحو ضروري.

□ التعامي عن الأنساق المعرفية المحلية المائزة للثقافات الأخرى يسهم في خلق جهل نسقي، وتلك ممارسة وحشية تفضي إلى اتباع نسق معرفي وحيد هو العلم الغربي.

□ ثمة حاجة ملحة إلى تبني التعددية الثقافية وكذا تثنين الخصوصيات الثقافية، لأجل تصحيح المسار الحضاري البائس المائل، وذلك عبر تحدي سلطة المعرفة الغربية والرأسمالية العلمية بوصفها أعلى مراحل الإمبريالية.

□ نحن بحاجة لرؤية العلم الحديث دونما غمومات المركزية الغربية، وكذا مقارنة العلم في التاريخ، أعنى في سياق التواريخ العولمية.

شروط إنتاج المعارف العلمية والعقلية تستدعي نمطا من العارفين وكذا أنساقاً معرفية مغايرة لتلك الأنساق المعرفية المألوفة لدى أولئك العارفين الخانعين، الذين كافحوا لأجل التعرف على نسق معرفي وحيد هو العلم الغربي.

ويهمنا أن نلفت هنا إلى أنه ثمة مسؤولية اجتماعية لفلسفة العلم، حيث غدت فلسفة العلم تتغيا التقدم العلمي والإصلاح الاجتماعي في آن معا، تتغيا إبستمولوجيا يسعها النفاذ إلى الواقع لأهداف تحريرية بمعزل عن العقلانية، وعلى هذا راحت تتحالف مع الحركات الاجتماعية لأجل المساواة، ولأجل ترسيخ المسؤولية العلم المعرفية الاجتماعية.

مسئولية العلم معرفية/ اجتماعية، تتغيا تحقيق المساواة بين البشر في الحقوق السياسية والمدنية والاجتماعية، وها هنا يغدو العلم كفاحاً لأجل العدالة الاجتماعية والإنسانية، العلم يسعه أن يسهم في ذاك الكفاح، وكذا يسعه أن يسهم في ترسيخ القهر والتأسيس لعلاقات اجتماعية هيراركية، وتسويغ المفاهيم المخادعة المجحفة اجتماعيا وسياسيا، والتي تمارس فعلها في الواقع المعيش، وتسهم في تشكل أدق تفاصيل الحياة الإنسانية.

**وهنا لنا أن نسأل:**

إذا كانت تلك المفاهيم لاتزال ماثلة قوية، فماذا عسانا أن نفعل؟

ليس يسعنا سوى أن يغدو لدى كل منا التزام بالكفاح السوسيوسياسي، التزام بمشروع إنساني يحرر الواقع من الشروط الجائرة الماثلة ومن تلك المفاهيم البائسة.

الممارسات العلمية الغربية بحاجة - الآن - لأن تمارس العلم المعرفي، وليس ثم فرق جم بين الفلسفة والعلم المعرفي. ففي التاريخ العقلي يحدث كل شيء مرتين، يبدأ بوصفه فلسفة وبعدها بوصفه علما معرفيا، الوجه الأول يتوجه نحو الطبيعة وهنا تبدو الإجراءات المعرفية بوصفها سلوك، بينما يتجه الوجه الآخر صوب العالم الإنساني، ويرى المعرفة بوصفها خبرة، أعني أن ترى الجسد بوصفه بنية فزيائية وكذا بوصفه خبرة حية، التئام البيولوجي والفيونولوجي، وجود داخلي وخارجي وليس كيان ميكانيكي فحسب، وذلك أن ذات المعرفة ليست هوية واحدة، هي ذات تُمدُّ الجسور فيما بين العقل في العلم والخبرة الحية.

فهل اغدت الممارسات العلمية مسهمة في خلق عالم ينبنى على التعددية الثقافية والتعددية

الإنسانية؟

